سيدة الجبل النحاسي

ذهب مرة اثنان من عمالنا لتفحص العشب، وكانت أرضهما بعيدة نحو الشمال، وكان اليوم يوم عيد والحر شديداً. كان الرجلان من عمال المعادن يستخرجان الحجر الأخضر الخام وكل ما يصادفانه من أحجار كريمة ومعادن ثمينة.

أحدهما كان شاباً عازباً والآخر كان أكبر قليلاً خجولاً وخائفاً وذا جسم نحيل ودائم السعال.

كانت الغابة جميلة والطيور تغرد سعيدة والأرض تبعث برائحتها العطرة، إلا أن الحر كان شديداً. وصل الرجلان إلى المنجم حيث كان يتم استخراج الحديد الخام، واستلقيا متعبين على العشب في ظل شجرة كبيرة وغرقا في نوم عميق. وبعد فترة شعر الرجل الشاب وكأن شخصاً دفعه في خاصرته فاستيقظ فوراً ونظر حوله فرأى أمامه امرأة جالسة فوق كومة من المعدن وقد أدارت ظهرها لهما، وكانت جديلتها الطويلة تشير إلى أنها صبية شابة. كانت الجديلة ذات لون أسود يميل إلى الأزرق وذات لمعة معدنية، ولم تكن تتمايل كجدائل الفتيات بل كانت ملتصقة بظهرها ثابتة بلا حراك، وفي نهايتها شرائط حمراء وخضراء لامعة ترن رنة معدنية وكأنها من النحاس المصفح. جلس الشاب يتأمل الجديلة بإعجاب وتابع يلاحظ في

obeikandl.com

فكره صفات الفتاة، حيث كانت متوسطة الطول ومتناسقة القوام، تمتلئ حيوية ونشاطاً فلا تبقى في مكانها أبداً، تنحني للأمام وكأنها تبحث عن شيء فوق الأرض ثم تنحني للخلف وتتحرك بسرعة خاطفة ولم يكن باستطاعته أن يشبهها إلا بالزئبق في حيويتها ونشاطها، وسمعها تتمتم بكلمات بلغة غريبة ولم يعرف مع من تتحدث، وكانت تضحك تارة فربما كانت تشعر بالمرح.

أراد الشاب أن ينطق بكلمة وفجأة استدرك نفسه قائلاً: يا أماه.. كيف لم أعرف أنها السيدة نفسها، فهذه الثياب التي عليها، كيف لم ألحظ فوراً؟ إنها جديلتها التي سحرتني.

وكانت ثياب الفتاة فعلاً غريبة لا يمكنك أن تجد لها مثيلاً في العالم، فقد كانت من الحجر الأخضر الذي يبدو كالحرير.

ففكر الشاب في نفسه: "يا لها من مصيبة كيف لي أن أهرب دون أن تلاحظني"، فقد سمع من الشيوخ أن سيدة الحجر الأخضر تحب أن تجرب سحرها وحكمتها على الناس. وما إن فكر بذلك حتى التفتت إليه مباشرة ونظرت إليه بمرح ثم ابتسمت وقالت مازحة: ما بالك يا ستيبان، تنظر إلى جدائل الفتيات؟ اقترب أكثر لنتحدث قليلاً.

خاف الشاب ولكنه حاول ألا يظهر خوفه، فاستجمع شجاعته وقال لنفسه: "رغم أنها لغز إلا أنها فتاة، ومن المعيب علي كشاب أن أخجل وأخاف من فتاة".

ليس لدي متسع من الوقت للحديث... قال الشاب – فقد نمنا كثيراً وعلينا أن نذهب لتفحص العشب.

فضحكت الفتاة وقالت: يكفيك تصنعاً، تعال أقول لك فلدي عمل لك.

فرأى الشاب أنه لم يبق أمامه إلا الاقتراب منها، فاتجه إليها، ولكنها أشارت له بيدها أن يدور حول المنجم من الجانب الآخر، فسار في الجانب الآخر ورأى عدداً هائلاً من السحالي، وكانت متنوعة و مختلفة فيما بينها، فبعضها أخضر اللون وأخرى

obeikandl.com

زرقاء وبعضها ذات نقاط ذهبية، وبعضها تلمع كالزجاج الملون وبعضها باهتة كالعشب وأخرى لها نقوش جميلة.

فضحكت الفتاة وقالت: لا تفرق جيشي يا ستيبان، فأنت كبير وثقيل بينما هم صغار... ثم صفقت بيديها فتفرقت السحالي مفسحة أمامه الطريق.

فاقترب الشاب منها وتوقف، فعادت وصفقت بيديها وقالت ضاحكة: والآن لم يعد لديك مكان تدوس عليه، فإذا دست على خدمي ستأتيك المصيبة. فنظر إلى الأسفل ورأى السحالي قد تجمعت حوله كالنقش على الأرض حتى لم يبق مكان يظهر فيه التراب.

فنظر ستيبان وقال في نفسه "يا إلهي إن هذه السحالي من النحاس الخام ومن جميع الأصناف وهي مصقولة بشكل جيد وتلمع لمعة قوية.

هل عرفتني الآن يا ستيبان؟... سألت سيدة الحجر الأخضر وضحكت ضحكة رنانة وبعد فترة عادت وقالت: لا تخف فلن أؤذيك.

فانزعج الشاب لأن الفتاة تسخر منه وصاح في وجهها قائلاً: إنني لا أخاف من شيء هنا فأنا أعمل في المناجم الجبلية.

حسناً... أجابت الفتاة – فأنا بحاجة لشخص مثلك لا يخاف شيئاً. فغداً عندما يأتي العمال إلى الجبل سيمر المشرف على عمالكم، فقل له دون أن تنسى كلمة مما سأقول لك: "إن سيدة الجبل النحاسي أمرتك بالرحيل عن هذا المنجم. فإذا تابعت تدمير قمة جبلها المعدنية، فإنها ستغرق النحاس كله في أعماق الأرض ولن يكون بمقدورك استخراجه"...قالت ذلك وتابعت: هل فهمت ما قلته يا ستيبان؟ فقد أخبرتني أنك تعمل في الجبال وأنك لا تخشى أحداً أليس كذلك؟ إذاً قل للمشرف ما أمرتك به، والآن اذهب واحرص على ألا تخبر شيئاً للرجل الذي معك، فهو رجل خائف ولست بحاجة لإقلاقه وإدخاله في هذه القصة.

ثم صفقت ثانية بيديها فهربت السحالي واختفت، ونهضت الفتاة على قدميها

وتحولت إلى سحلية لها رأس فتاة وعندما وصلت إلى قمة الجبل التفتت وقالت: لا تنس يا ستيبان ما قلته فإن فعلت ذلك صرت لك زوجة.

فبصق ستيبان غاضباً وقال: يا له من قرف أن أتزوج سحلية.

فرأته الفتاة وهو يبصق وضحكت كثيراً وقالت: حسناً سنتحدث لاحقاً. ربما تغير رأيك فيما بعد. ثم اختفت مسرعة وراء الجبل. وبقي الشاب وحيداً وانتشر الهدوء في المنجم ولم يسمع إلا شخير صديقه من خلف كومة المعدن، فأيقظه وذهبا لتفحص العشب، وعند المساء عادا إلى المنزل وكان أمر واحد يشغل بال ستيبان وهو كيف سيقول للمشرف هذا الكلام فقد كان المشرف لئيماً وحقوداً. كما أن عدم قيامه بما أمرته الفتاة أمر سيئ أيضاً فهي كانت سيدة المناجم كلها، وكان بمقدورها أن تحول الحجارة الكريمة والمعادن الثمينة إلى تراب، وعندها سيجبره المشرف على العمل ليلاً نهاراً لاستخراج الكمية المتوجبة عليه يومياً.

والأسوأ من ذلك أنه خشي أن يبدو متباهياً بنفسه أمام الفتاة، ففكر في نفسه وضحك ثم قال: حسناً سأفعل كما أمرتني.

وفي صباح اليوم التالي اجتمع العمال في الساحة بلمح البصر وجاء المشرف على العمل في المناجم، فخلع العمال قبعاتهم ووقفوا صامتين، فاقترب ستيبان من المشرف وقال: قد رأيت البارحة سيدة الجبل النحاسي، وقد أمرتني بأن أنقل لك أمرها بالرحيل عن هذا الجبل، وأنك إذا دمرت قبعة الجبل المعدنية فإنها ستُغرِق كل النحاس في أعماق الأرض ولن يعود بمقدور أحد استخراجه.

فوجئ المشرف بهذا الكلام حتى أن شاربه رجف، وصاح في وجه ستيبان: ما هذا الذي تقوله، هل أنت ثمل أم فقدت رشدك؟ فعن أي سيدة تتحدث وكيف تجرأت لتقول لي هذا الكلام؟ سأعاقبك وأجعلك تهلك في الجبل.

افعل ما شئت... قال ستيبان – لكنني نقلت لك قولها.

اجلدوه... صاح المشرف غاضباً – ثم أنزلوه في عمق الجبل وقيدوه في طرف المنجم المخصص للتعدين، وأطعموه طعام الكلاب كي لا يموت من الجوع وطالبوه بأداء عمله اليومي وتقديم الكمية المطلوبة من المعادن والحجارة الكريمة ولا تتساهلوا معه، فإذا اعترض اجلدوه بلا رحمة.

نفذ العمال أمر المشرف وقيدوا ستيبان في الجبل في أسوأ مكان نفذ منه المعدن والحجر منذ زمن بعيد وانتشرت فيه الرطوبة التي تمنع من العمل. فقد كان الزمن زمن إقطاع ولم يكن للفلاح والعامل أي رحمة فكان الإقطاع يستغلون الإنسان أشد استغلال.

وقبل أن يغادر نائب المشرف قال بجفاء: يمكنك أن ترتاح هنا قليلاً، لكنني سأعود لأطالبك بالكمية المطلوبة منك من الحجر الأخضر النقي... وذكر له كمية غير معقولة. ولم يبق أمام ستيبان إلا أن يأخذ المعول ويبدأ العمل، فقد كان شاباً نشيطاً. وما أن ضرب ضربة بمعوله حتى بدأ الحجر الأخضر النقي يتساقط أكواماً وكأن شخصاً كان يدفعه بيديه من خلف الجدار، كما أن الرطوبة اختفت من هذا المكان تماماً وأصبح جافاً وصالحاً للعمل.

ففكر ستيبان في نفسه: "لا شك أن السيدة تذكرتني وأرسلت لي مساعدتها". وما أن فكر بذلك حتى أضاء المكان من حوله وظهرت السيدة أمامه.

أحسنت يا ستيبان... قالت السيدة – أنت رجل شجاع لم تخش المشرف، فلنذهب لرؤية صداق عروسك، فأنا أيضاً لا أتراجع عن كلمتي.

ثم عبست السيدة وكأنها انزعجت من أمر ما، وصفقت بيديها فحضرت السحالي ونزعت القيود عن ستيبان، فأمرتهم السيدة قائلة: حضروا كمية مضاعفة من الحجر الأخضر من الصنف الأول واتركوه في هذا المكان... ثم استدارت نحو ستيبان وقالت: حسناً أيها العريس فلنذهب لرؤية صداق عروسك.

وهكذا سار ستيبان خلف السيدة وبدأت جدران الجبل تنفتح أمامهما، فتكشف عن صالات كبيرة تحت الأرض من ألوان مختلفة خضراء وصفراء وذهبية ونحاسية.

وكلما دخلت السيدة إلى صالة تغير لون ثوبها فتارة يبدو كالزجاج وتارة يبهت لونه ثم يتحول إلى ألماسي والأحمر النحاسي والأخضر الحريري.

وبعد سير طويل توقفت السيدة وقالت: إن ما تبقى من الصالات هي صفراء ورمادية منقطة تمتد لمسافات بعيدة فلا داعي لتفحصها، لكننا الآن تحت قمة الجبل ولدي هنا أغلى مكان على قلبي.

ورأى ستيبان أمامه صالة ضخمة مليئة بالأسرة والطاولات والكراسي وجميعها من النحاس الملكي. وجدران الصالة من الحجر الأخضر المرقش بالألماس والسقف أحمر غامق تزينه أزهار نحاسية.

دعنا نجلس هنا لنتحدث... قالت السيدة.

فجلسا على الكراسي وسألته السيدة: هل رأيت صداقي؟

رأيته... أجاب ستيبان.

فما رأيك بالزواج؟

لم يدر ستيبان بماذا يجيب، فقد كانت لديه عروس، وكانت فتاة لطيفة ويتيمة، وهي طبعاً لا يقارن جمالها بجمال السيدة.

وكان ستيبان إنساناً عادياً وبسيطاً فتردد قليلاً ثم قال: إن صداقك يليق بالملوك، بينما أنا عامل بسيط.

لا تراوغ يا صديقي... قالت السيدة – بل أجبني بصراحة، هل تأخذني زوجة أم لا؟... وزاد العبوس على وجهها.

فأجابها ستيبان: لا أستطيع أن أتزوجك لأنني أعطيت كلمة لأخرى.

قال ذلك وفكر في نفسه: "لا شك أنها ستغضب بشدة".

لكنه فوجئ بأنها بانت مسرورة وقالت: أحسنت يا ستيبان. قد مدحتك مرة على شجاعتك والآن أمدحك مرتين لأنك لم تطمع بأملاكي ولم تستبدلها بحبيبتك

آنستاسيا وهذه هدية تهديها لعروسك... وأعطته صندوقاً من الحجر الأخضر مليئاً بالمجوهرات النسائية من خواتم وأقراط تليق بالعروس.

أخذ ستيبان الصندوق وقال: وكيف سأصعد إلى الأعلى وأنا أحمل هذا الصندوق؟ سيأخذه المشرف مني.

لا تشغل بالك بهذا، فأنا سأتدبر كل شيء وأحررك من المشرف وستعيش حياة رفاهية مع زوجتك الشابة، لكن إليك أمري بألا تتذكرني أبداً ولا تعد إلي ثانية وسيكون هذا اختباري الثالث لك. والآن تفضل لتناول الطعام.

فصفقت بيديها ثانية وحضرت السحالي وملأت الطاولة بأصناف الأطعمة اللذيذة. ثم قالت السيدة: والآن وداعاً يا ستيبان وحافظ على ألا تتذكرني... وسالت دموعها من عينيها وتحولت إلى أحجار كريمة صغيرة، فأعطته إياها قائلة: "إن الناس يدفعون مالاً لقاء هذه الأحجار الكريمة فإذا بعتها تصبح غنياً".

ثم مدت يدها لتعطيه الأحجار فشعر بدفئها ورأى أنها حزينة لفراقه.

أخذ ستيبان الأحجار وانحنى للسيدة مودعاً وقال: إلى أين أذهب؟ وبدا هو الآخر حزيناً.

فأشارت إليه بإصبعها وانفتح أمامه ممر طويل ومضيء، فسار ستيبان في هذا الممر ورأى الكثير من كنوز الجبل ووصل أخيراً إلى المكان المخصص له. فانغلق الممر خلفه وعاد كل شيء إلى طبيعته. وجاءت سحلية وقيدت رجليه بالسلاسل، وتحول الصندوق الثمين إلى صندوق صغير جداً خبأه ستيبان في جيبه. وبعد فترة جاء المشرف وكانت نيته أن يسخر من ستيبان لكنه فوجئ بكمية الحجر الأخضر التي تفوق الكمية المطلوبة وكان من الصنف الأول ففكر المشرف في نفسه: "ما هذا .. من أين جاء بكل هذه الكمية من الحجر الأخضر؟" ثم تفحص المكان كله وقال: في هذا المكان بمقدور أي شخص أن يستخرج الحجر الأخضر... وأخذ ستيبان إلى مكان آخر نفذ منه الحجر الأخضر، وجاء بابن أخيه ووضعه في هذا المكان.

وفي اليوم التالي بدأ ستيبان عمله وعاد الحجر الأخضر يتساقط كما حدث في اليوم السابق وكان من الصنف الأول، بينما لم يستطع ابن أخ المشرف أن يستخرج شيئاً فأسرع نائب المشرف إلى المشرف وقال له: لا شك أن ستيبان باع روحه للقوى الخفية.

فأجاب المشرف: هو حر بذلك ونحن علينا أن نبحث عن ربحنا ومصلحتنا. قل له إننا سنمنحه الحرية إذا وجد كومة هائلة من الحجر الأخضر وحدد له الوزن المطلوب لتلك الكومة.

فجاء نائب المشرف إلى ستيبان ونقل إليه أمر المشرف وتم إيقاف جميع الأعمال في الجبل. وفكر المشرف في نفسه: "من يدري ربما كان هذا الأحمق يقول الحقيقة، كما أن الأحجار بدأت تخرج مع النحاس وهو أمر سيئ للغاية".

بعد أن سمع ستيبان أمر المشرف قال: لا أحد يرفض الحرية سأحاول جهدي ولكنني لا أعرف إن كنت سأنجح أم لا.

وبعد فترة وجد ستيبان كومة حجرية كهذه، ولكن المشرف ونائبه خدعاه ولم يمنحاه الحرية. وأرسلا رسالة إلى الإقطاعي يصفان فيها كومة الحجر الأخضر التي وجدها ستيبان، فجاء الإقطاعي مباشرة من المدينة واستدعى ستيبان إليه فوراً، وقال: اسمع يا ستيبان إنني أعدك وعد النبلاء بتحريرك من العبودية إذا عثرت لي على حجارة خضراء تكفي لصنع أعمدة لا يقل طولها عن ستة أمتار.

فأجاب ستيبان: قد خدعني أعوانك مرة، وأنا لست متعلماً ولكنني سأطالبك بكتابة وثيقة رسمية أولاً.

فكتب الإقطاعي الوثيقة وأعطاها لاستيبان قائلاً: خذ ولكن ابذل جهدك.

فأجاب ستيبان إجابته المعهودة "سأفعل ما بوسعي". وطالما أنه رأى جوف الجبل كله وعرف أماكن كنوزه والسيدة نفسها كانت تساعده فقد صنع مع العمال من الحجر الأخضر أعمدة وأخرجوها خارج الجبل، فأخذها الإقطاعي مباشرة إلى

المدينة. ومنذ ذلك الحين حصل ستيبان على حريته ولكن كنوز الجبل اختفت كلها وكأنها لم تكن. وكانت الشائعات تقول إن السيدة غضبت لأنهم أخذوا الأعمدة من الجبل.

كما أن ستيبان لم يعثر على سعادته في الحياة، فقد تزوج وأنشأ عائلة وبنى بيتاً كبيراً، وكان من المفترض أن يعيش سعيداً فقد كان لديه كل شيء، ولكنه بدا حزيناً وساءت صحته تدريجياً وأصابه المرض وبدأ يذوب أمام أعين الجميع. وكانت لديه تسلية بعد مرضه وهي الذهاب للصيد، ولكنه كان بحجة الصيد يتجه إلى الجبل دائماً ويجلس هناك حزيناً ولا يجلب معه شيئاً من الصيد إلى بيته وفي إحدى المرات وافته المنية وهو جالس في ذلك المكان فبحث عنه أهله طويلاً ووجدوه ميتاً بجانب الجبل وكانت الابتسامة تغطي وجهه.

وقد روى الأشخاص الذين وجدوه أنهم رأوا بجانب ستيبان سحلية كبيرة خضراء تذرف الدموع وما أن اقترب الناس حتى اختفت وعندما أحضروا الميت إلى المنزل وهموا بغسله رأوا أن إحدى يديه تقبض بقوة على شيء ما ففتحوا يده ورأوا فيها أحجاراً كريمة صغيرة وصاح أحد العارفين: إنه حجر الزمرد النحاسي النفيس، إنها ثروة بقيت لك يا آنستاسيا. من أين له هذه الأحجار؟

فوضحت زوجة ستيبان أن ستيبان لم يتحدث مرة بخصوص أحجار كهذه، فقد أهداها الصندوق الحجري الثمين عندما كان عريساً وكان يمتلئ بالمجوهرات ولكن لم تكن الأحجار بينها.

وعندما هموا بأخذ الأحجار من يد ستيبان تحولت هذه الأحجار الثمينة إلى غبار ولم يعرف أحد من أين حصل عليها. وبعد مدة أخبرهم أحد العارفين بأن هذه الأحجار هي دموع سيدة الجبل النحاسي. إذ لم يبعها ستيبان ولم يخبر أحداً بها وتوفي وهو يمسك بها.

هكذا هي سيدة الجبل النحاسي فالشرير الذي يلقاها يلقى المصيبة والخيّر لا يجد الكثير من السعادة.

obeikandl.com